جماليات اللون في رواية
"اللص والكلاب" لـ (نجيب محفوظ)

محمد كمال سرحان
أستاذ الأدب والنقد المشارك
كلية الدراسات الإنسانية والإدارية
كليات عنيزة، المملكة العربية السعودية

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الأول)
(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

جماليات اللون في رواية "اللص والكلاب" لـ (نجيب محفوظ)

محمد كمال سرحان
قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإنسانية والإدارية، كليات عنيزة، المملكة العربية السعودية.
البريد الالكتروني: drmkamalsarhan@gmail.com

ملخص البحث: يهدف البحث إلى: كشف تجليات اللون داخل الخطاب السردي، وإبراز التشكيل الهندسي للون –داخل النص الروائي– بوصفه طاقة تعكس الأبعاد: النفسية، والاجتماعية، والثقافية للشخصيات الروائية، واستكناه الدلالات: الإيحائية، والرمزية للون داخل السياق السردي، وكشف التقارب الفني بين السياق السردي واللون بوصفه أيقونة سيميائية دالة، وقد اعتمد البحث المنهج السيميائي (السيمولوجيا)، الذي يهتم بدراسة كل أنظمة العلامات داخل الحياة الاجتماعية؛ فجميع: العلامات والأنظمة اللغوية وغير اللغوية، والأنساق الدالة، والقوانين التي تنظمها؛ هي الموضوع الأساس لهذا العلم، ومن الأسباب التي دفعتني لهذه الدراسة: – اللون – في رواية "اللص والكلاب"– من الإضافات الجمالية التي فرضت نفسها على كافة مفاصل الرواية، وَظَّفَ الكاتب اللون –داخل الرواية– ببراعة فنية؛ أنتجت: دلالات، وإيحاءات، ورمزيات متعددة، اللون ظاهرة فنية بارزة في الرواية؛ حيث اهتمت به اهتمامًا خاصًا، استثمر الكاتب الطاقات الهائلة التي تحملها الألوان، ووظَّفها –فنيًا– للتحكم في مسار الحركة السردية منذ بداية النص حتى نهايته، اللون محرك أساس للصور واللوحات الفنية داخل الرواية، فالألوان جزء أساس في الحياة؛ فلا يمكن تخيل العالم بلا ألوان؛ فهي التي تمنح الأشياء: هويتها، وصفاتها، وخصائصها، ولقد شكَّل اللون بنية بارزة في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ؛ حيث اعتنت بتوظيف الألوان داخل بنيتها؛ لإضفاء: دلالات متعددة، ومعاني رمزية متنوعة؛ زادت البنية السردية: قوةً، وعمقًا، وجمالًا، وفنيةً، ولقد استثمر المبدع الطاقات الهائلة التي تحملها الألوان في النص في:

صور، وأشكال مختلفة، بدءًا من: الغلاف الخارجي، والعنوان، والمطلع اللوني، وبنية النص، وأتقن "نجيب محفوظ" توظيف الألوان: المباشرة الصريحة، وغير المباشرة الإيحائية –داخل الرواية– لتوليد دلالات وجماليات متعددة، وأخيرًا اعتنى الكاتب بإبراز أبعاد اللون، وشملت الأبعاد: النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية.

الكلمات المفتاحية: جماليات اللون، دلالات اللون، سيميائية اللون، تشكلات اللون، جدلية اللون، بنية اللون، الألوان.

The aesthetics of color in the novel "The Thief and the Dogs" by (Naguib Mahfouz)

Muhammad Kamal Sarhan
Department of Literature and Criticism, College of Human and Administrative Studies, Onaizah Colleges, Saudi Arabia.
Email: drmkamalsarhan@gmail.com

Abstract: The research aims to: reveal the manifestations of color within the narrative discourse, and highlight the geometric formation of color - within the narrative text - as an energy that reflects the psychological, social, and cultural dimensions of the novelistic characters, and its connotations: suggestive and symbolic of color within the narrative context, and reveal artistic affinity Between the narrative context and color as a signifying semiotic icon. The research has adopted the semiotic approach, which is concerned with studying all systems of signs within social life; All: linguistic and non-linguistic signs and systems, signifiers, and the laws that regulate them; It is the main subject of this science, and among the reasons that prompted me to this study: - The color - in the novel “The Thief and the Dogs” - is an aesthetic addition that imposed itself on all the joints of the novel. The writer employed color - within the novel - with artistic prowess; It produced: connotations, allusions, and multiple symbolisms. Color is a prominent artistic phenomenon in the novel; Where she paid special attention to him, the writer invested the enormous energies that colors carry, and employed them - technically - to control the course of the narrative movement from the beginning of the text to its end. The world cannot be imagined without colours; It is what gives things: their identity, qualities, and characteristics. The color formed a prominent structure in the novel “The Thief and the Dogs” by Naguib Mahfouz; Where she took care of the employment of colors within her structure; To give: multiple connotations, various symbolic meanings; The

narrative structure has increased: strength, depth, beauty, and artistry, and the creator has invested the enormous energies that colors carry in the text in: images, and various forms, starting with: the outer cover, the title, the color premise, and the structure of the text, and "Naguib Mahfouz" mastered the use of colors. : direct, explicit, and indirect suggestive - within the novel - to generate multiple connotations and aesthetics, and finally the writer took care of highlighting the dimensions of color, which included: psychological, social, cultural, and religious dimensions.

Keywords: Color aesthetics, Color semantics, Color semiotics, Color formations, Color dialectics, Color structure, Colors.

(**مقدمة**):

يعدُّ اللون عنصرًا رئيسًا في حياتنا؛ لما له من دور كبير في تحديد الأشياء، وتجسيم الاختلافات بينها؛ فهو "السبب الحقيقي لكي تصبح الأشياء مرئية"[١]، كما أنه يمنح الحياة قيمة، ويكسو الطبيعة جمالًا، ويبعث في النفوس بهجة وسعادة؛ فاللون "معجزة منفردة؛ تتجسد في كل ما يحيط بنا، وهو مفهوم يساعدنا على كشف هوية وخصائص كل شيء حيٍّ، وغير حيٍّ، له لون"[٢].

إنَّ الألوان توجد في كل شيء حولنا، ولا يمكن تخيل العالم دون وجودها؛ "فلا يمكن أن نتصور هذا الكون: بأشجاره، وحدائقه، وأنهاره، وجباله بدون ألوان؛ لأننا لا يمكن أن نتخيل لوحة فنية مجردة الألوان؛ فكيف لنا أن نتخيل ما أبدعه الله وزيّنه بألوان شتى"[٣]؛ فالألوان من أهم عناصر الجمال في الكون؛ إنها "مظهر من مظاهر الحياة: الجمالية، المعنوية، والحسية التي لها أثرها في: مشاعر الإنسان، وحياته النفسية، وإحساسه باللذة في الحياة؛ حيث: تنعش فيها العاطفة، وتوقظ المشاعر، وتثير الخيال"[٤].

واللون عنصر جمالي بارز في مختلف الفنون، وله حضوره المتنوع في كافة الأشكال الإبداعية عامة؛ فهو "أحد أبرز العناصر الجمالية في

١- صلاح عثمان: الواقعية اللونية، قراءة في ماهية اللون وسبل الوعي به، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، د ط، ص٦٨.

٢- صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الجزائري المعاصر فترة (١٩٨٨-٢٠٠٧)، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠م، ص ٢٦.

٣- ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، الشعر الأردني نموذجًا، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٣.

٤- صالح ويس: الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٤م، ص١٢.

الفنون؛ إذ يشكِّل حضورًا واسعًا؛ يمكن أن يغير مسار الشكل الإبداعي: سلبًا أو إيجابًا"[١].

إنَّ الألوان لها دور كبير في حياة الإنسان؛ "فالألوان من أهم الظواهر الطبيعية التي تسترعي انتباه الإنسان؛ ولذلك اكتسبت –مع الأيام، وفي مختلف الحضارات– دلالات: ثقافية، ودينية، ونفسية، واجتماعية، ورمزية، وأسطورية، وتوطدت علاقاتها بالعلوم الطبيعية، وعلم النفس، وشكَّلت المادة الأساس للعديد من الفنون، والفن التشكيلي على وجه الخصوص"[٢].

ولقد استخدم اللون –على نطاق واسع– في الأدب العربي خاصة، في مختلف مجالاته: الشعرية والنثرية، ووظف بطريقة فنية؛ جعلت منه عنصرًا؛ يستمد منه بعض طاقاته الإيحائية.

ولقد اعتنت الرواية العربية بتوظيف التقنيات الفنية الحديثة داخل بنيتها، وفي مقدمتها اللون، الذي شكَّل فيها بنية جمالية؛ تضفي على النص: دلالات متعددة، وإيحاءات متنوعة، ومعاني رمزية؛ تقوي بنيته، وتزيدها فنية وإيجابية؛ تؤثر في المتلقي؛ ولهذا حرص الروائي على حسن توظيف اللون داخل نصوصه، بصورة تخدم النص، وتبعث فيه قيمًا جمالية؛ تجذب المتلقي، وتحرك فكره؛ حيث إنَّ "اللون عنصر أساسي في تذوق دلالات النص، واستيعاب جمالياته"[٣]، فاللون له دوره الفعَّال في النص الأدبي؛ لأنه "يحمل

١– علي إسماعيل السامرائي: اللّون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، دار غيداء، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨، ص١٨.

٢– كلود عبيد: الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، ودلالاتها، مراجعة محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م، ص٩.

٣– قاسم حسين صالح: الإبداع وتذوق الجمال، دار دجلة، عمان الأردن، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٧٧.

قدرًا كبيرًا من العناصر الجمالية، وإضاءات دالة؛ تعطي أبعادًا فنية في العمل الأدبي"[١].

إنَّ حسن توظيف اللون وجودة استثماره؛ له دوره في جودة العمل الأدبي؛ "فدقة التعبير عن تداخل الألوان وتمازجها، وما ينشأ عنها من تموجات دقيقة في مدلولاتها، وطبيعة وجودها؛ هو ما يميز النص الأدبي"[٢].

ونظرًا لأهمية اللون في البناء السردي، وقدرته على إثرائه بمعانٍ جديدة، ودلالات رمزية؛ تزيد النص عمقًا؛ جاء هذا البحث تحت عنوان: جماليات اللون في رواية "اللص والكلاب" لـ(نجيب محفوظ).

ومن الأسباب التي دفعتني لهذه الدراسة:

- اللون –في رواية "اللص والكلاب"– من الإضافات الجمالية التي فرضت نفسها على كافة مفاصل الرواية.
- وَظَّفَ الكاتب اللون –داخل الرواية– ببراعة فنية؛ أنتجت: دلالات، وإيحاءات، ورمزيات متعددة.
- اللون ظاهرة فنية بارزة في الرواية؛ حيث اهتمت به اهتمامًا خاصًا.
- استثمر الكاتب الطاقات الهائلة التي تحملها الألوان، ووظَّفها – فنيًا– للتحكم في مسار الحركة السردية منذ بداية النص حتى نهايته.
- اللون محرك أساس للصور واللوحات الفنية داخل الرواية.

ومن الأهداف التي يسعى البحث لتحقيقها:

- كشف تجليات اللون داخل الخطاب السردي.

١– ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر، مرجع سابق، ص٧٧.

٢– ابتسام مرهون الصفار: جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٠م، ص٦٧.

- إبراز التشكيل الهندسي للون –داخل النص الروائي– بوصفه طاقة تعكس الأبعاد: النفسية، والاجتماعية، والثقافية للشخصيات الروائية.
- استكناه الدلالات: الإيحائية، والرمزية للون داخل السياق السردي.
- كشف التقارب الفني بين السياق السردي واللون بوصفه أيقونة سيميائية دالة.

وقد اعتمد البحث المنهج السيميائي (السيمولوجيا)، الذي يهتم بدراسة كل أنظمة العلامات داخل الحياة الاجتماعية؛ فجميع: العلامات والأنظمة اللغوية وغير اللغوية، والأنساق الدالة، والقوانين التي تنظمها؛ هي الموضوع الأساس لهذا العلم[١].

واللون علامة سيميائية يحتويها الخطاب السردي، ويوظفها في صور فنية متعددة؛ لاستدعاء دلالات ومعان خفية داخل النص.

ودراسة اللون في –في رواية "اللص والكلاب"– تقتضي تقسيم البحث إلى: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، والمصادر والمراجع، كالتالي:

مقدمة: تتناول: أهمية اللون ودوره في: الحياة، والفن، والأدب بفنونه: الشعرية، والنثرية، وأسباب اختيار الموضوع، وأهداف الدراسة، والمنهج المعتمد في البحث، وخطة الدراسة.

وتضم الدراسة ثلاثة مباحث، كالتالي:

١–انظر:

– يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م، ص٩٣.

– فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م، ص١٧، وما بعدها.

– بسام قطوش: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٨٧ –١٨٨.

أولًا- تجليات الألوان في الخطاب السردي، ويضم:

أ-جماليات اللون في الغلاف.

ب- جماليات اللون في العنوان.

ج- جماليات اللون في المطلع السردي.

ثانيًا- دلالة الألوان في بنية النص السردي، ويشمل:

أ- دلالة اللون المباشر.

ب- دلالة اللون غير المباشر.

ثالثًا - أبعاد الألوان، وتضم:

أ-البعد النفسي للون.

ب- البعد الاجتماعي والثقافي للون.

ج- البعد الديني للون.

وأخيرًا المصادر والمراجع.

أولًا- تجليات الألوان في الخطاب السردي، ويضم:

أ- جماليات اللون في الغلاف:

الغلاف الخارجي يجسد محطة مهمة في التجربة الروائية؛ لما فيه من: الألوان، والصور، والخطوط، والفراغات، والبياض، والسواد، وغيرها من العناصر التي لها أثرها في تحقيق فعالية التواصل مع القارئ، إنه "أهم عتبة يواجهها القارئ للدخول إلى عالم الرواية، وهو يحمل كمًّا هائلًا من الشفرات، أو بتعبير أدق: الغلاف الخارجي من أهم عناصر النص الموازي الذي يفتح أمام المتلقي أبواب تناول النص السردي من عدة مستويات: دلالةً، وبناءً، وتشكيلًا، ومقصديةً"[1]، كما أنَّ له دورًا كبيرًا في بث إشارات نحو مضمون النص، وعكس بعض أغواره؛ فهو بمثابة تحديد لهوية النص السردي؛ إنه

١- جميل حمداوي: السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر الكويت، مج٢٥، عدد٣، يناير، مارس،١٩٩٧ م، ص١٠٧.

"هوية بصرية ينبغي أن نتقبلها كإحدى هويات النص؛ حيث يضع للنص: سماته، وعلاماته، وهويته"[١].

ومكونات الغلاف متعددة، ومنها اللون الذي يعدُّ من العناصر الرئيسة في دراسته؛ وذلك لما له من تأثير نفسي قوي في المتلقي، وفي جذبه نحو النص، ومتابعة قراءته. وفيما يلي صورة غلاف الرواية:

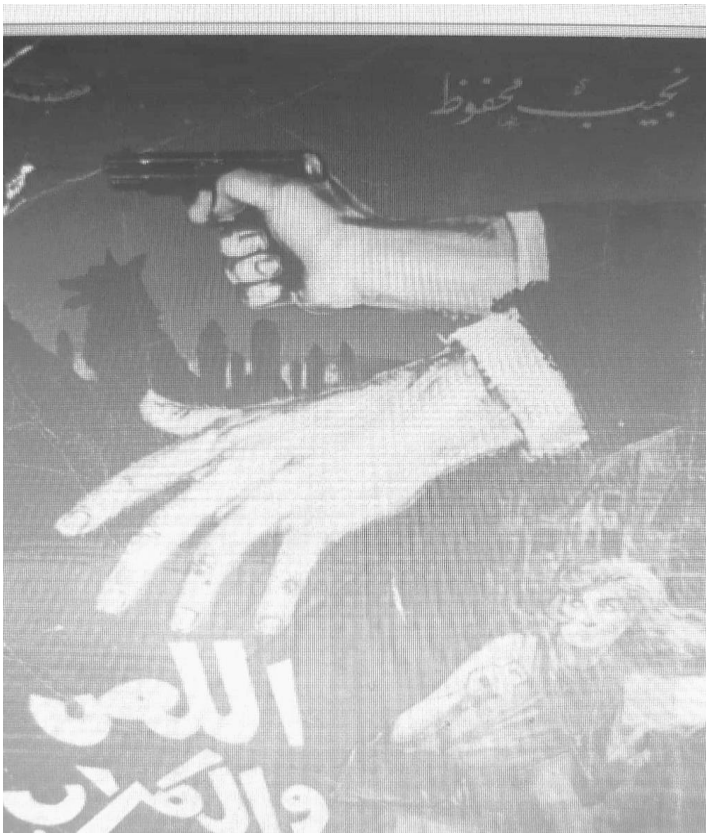

إنَّ غلاف رواية "اللص والكلاب" يعكس مجموعة من الألوان التي تتباين بين: داكنة وأخرى فاتحة، ويحتلُّ اللون الأسود القاتم مساحة واسعة من الغلاف؛ فيشمل: جزءًا واسعًا من الخلفية، ويطغى على صورة: بيوت مدينة،

١- حسن نجمي: شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠ م، ص٢٢.

وكلاب مفترسة، كما أنه يلوِّن بعض الصور المشكلة لمكونات الغلاف، مثل: صورة رجل غير مكتمل الملامح، يرتدي بذلة سوداء، ومسدسًا أسود اللون.

وقراءة أحداث الرواية تفك رموز ألوان الغلاف؛ فسواد البذلة تحمل دلالات حياة الهم، والأسى، وحالات الصراع التي يعيشها لابسها/البطل. بينما سواد المسدس يشير إلى ما يحمله صاحبه من معاني: الانتقام، والخراب، والدمار. ولون البيوت السوداء يحيل إلى: الظلمة، والخوف، والجهل، والضياع، والاغتراب، والكآبة، والواقع الأسود الذي يعيش فيه أهلها وساكنوها. ولون الكلاب السوداء يلحُّ على: الوحشية، والضراوة، والفزع، والتشاؤم.

ومن هذا السواد المنتشر في خلفية الغلاف؛ تبرز –من الملابس السوداء للرجل– مساحة ضيقة من اللون الأبيض؛ توحي بالأمل في التخلص من سواد الماضي، ثمَّ ينحسر هذا البياض، ليظهر اللون البني الفاتح –في يد الرجل– ليعطي دلالة تضاد بارزة بين اللونين: الأبيض وما يحيل إليه من الأمل في حياة أفضل، وتوقع مستقبل مشرق، واللون البني الذي يشير إلى أنَّ الأمل في مستقبل أفضل؛ بدأ يضعف، وأنه قد ساده شيء من: الضبابية والغموض. فاللون البني الفاتح يحمل دلالات عديدة، منها أنَّ الأمل في الخروج من المأزق بدأ يضعف ويقل، ثمَّ يعود اللون الأسود في الظهور –مرة أخرى– في صورة المسدس الأسود؛ لتأكيد عودة الشقاء والتعاسة لحامله؛ ويبين أنَّ الشخصية متجهة نحو: الشر، والمستقبل المجهول الغامض، ثمَّ يسود اللون الأسود في الخلفية، متمثلًا في صورة الكلاب التي توحي: بالوحشية، والفزع، وهنا تتمثل ألوان الغلاف في المعادلة التالية:

أسود قاتم□أبيض□ بني فاتح □أسود قاتم □أسود قاتم

هذه المعادلة برموزها اللونية تعبر عن حياة البطل داخل المتن الروائي: فقد عاش حياة سوداوية يسيطر عليها: الغدر، والفساد؛ فقد غدرت به زوجته، وخانه أعز أصدقائه، وألقيا به في السجن، وهذا ما يحيل إليه اللون الأسود للبذلة.

وعندما خرج من السجن؛ تجدد الأمل –لديه– في العيش حياة كريمة، وأن يجد العون والمساعدة ممن حوله، وهذا ما يمثله اللون الأبيض. لكنه عندما خرج للحياة واجهته صعوبات كثيرة، أضعفت أمله في مستقبل أفضل، وهذا يتناسب مع اللون البني الفاتح لليد.

ثمَّ هذا البطل يجد الواقع مظلمًا؛ حيث الغدر من كل المحيطين به، حتى ابنته تنكره، ولا تتعرف عليه، وكل الظروف تدفع به نحو: الضياع، والهلاك، والشر، والانتقام، والسجن، والمستقبل المظلم؛ يعبر عنه اللون الأسود للمسدس.

كما أنَّ الصورة لعبت دورًا واسعًا داخل غلاف الرواية، بوصفها: رمزًا فضائيًا، ورسالة بصرية، لها دورها في إثارة معاني متعددة؛ تحرك مشاعر وانفعالات كثيرة داخل المتلقي.

وفي الغلاف تشكِّل صورة المرأة –بألوانها المتعددة– جانبًا بارزًا في الغلاف؛ حيث تحتلُّ مساحة –غير قليلة– من الجانب السفلي للغلاف؛ فتظهر في: ثوبٍ أحمر داكن؛ وشفاه حمراء، وشعرٍ أصفر داكن، وحليٍّ أصفر؛ إشارة لما تتصف به هذه المرأة من: إثارة للشهوات والرغبات الجنسية، والإغراء، والجمال، والحيوية، وهذا يتفق مع طبيعة بطلة الرواية/ (نور): الغانية، بائعة الهوى؛ تبيع جسدها لمن يدفع أكثر؛ تغري الرجال، وتثير رغباتهم، وتحرك سواكنهم، بملابسها العارية، وحركاتها المثيرة؛ إنها تحيا في الملذات والمتعة الرخيصة، والسهرات الحمراء، وهذا ما يعبر عنه اللونان: الأحمر، والأصفر. وتحمل المرأة حقيبة يد (سوداء)؛ ترمز للمجهول، والخوف من المستقبل.

وفي صفحة داخلية أخرى للغلاف تظهر الصورة التالية:

في هذه الصورة نجح الكاتب في توجيه ضربة للفاسدين، الذين خربوا كل شيء، وجاءوا على الأخضر واليابس؛ فالشجر معروف بلونه الأخضر/

رمز: النماء، والخصب، والحياة، لكن في اللوحة جاء الشجر بلون أسود قاتم/رمز: للموت، والخراب، والدمار، والفقد لكل: العمران، والقيم، والمبادئ، في دلالة واضحة على الأثر السيء لهؤلاء اللصوص والمجرمين.

كذلك يلاحظ في الصورة رجل، يغلب عليه اللون الأسود، ونصف جسده مغروس في الأرض؛ لتأكيد ترسيخ أقدام الفاسدين في المجتمع، وفي أقصى الصورة تظهر سيارة فارهة، محاطة بسواد منتشر.

والقراءة المتأنية للرواية تظهر أن الرجل هو البطل/اللص "سعيد مهران"، والسيارة الفخمة رمز/الكلاب الفاسدين المتوغلين في مناصب عالية داخل المجتمع؛ فهؤلاء هم سبب خراب المجتمع ودماره.

ومن خلال ما سبق يتضح غلبة اللون الأسود على صفحة الغلاف الخارجي وانتشاره –أيضًا– في صفحة الغلاف الداخلي؛ للإيحاء برفض الكاتب لهذه الفئات الضالة من اللصوص والكلاب؛ بسبب أفعالهم السيئة، وجرائمهم المشينة، المنبوذة اجتماعيًا وقانونيًا، واعتراضه على توغلهم في كافة قطاعات المجتمع.

ب– جماليات اللون في العنوان:

العنوان "علامة لغوية تعلو النص؛ لتسمه، وتحدده، وتغري القارئ بقراءته"[1]، فهو "رسالة لغوية، تعرف بتلك الهوية، وتحدد مضمونها، وتجذب القارئ إليها، وتغريه بقراءتها، وهو الظاهر الذي يدل على باطن النص ومحتواه"[2].

١– ليندة جنادي: هبة مفتاحي: سيميائية العنوان في روايات محمد مفلاح، قصص الهواجس وشعلة المايدة نموذجًا، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، ٢٠١٥م، ص٢١.

٢– بشرى البستاني: قراءات في الشعر العربي الحديث"، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،١ط، ٢٠٠٢، ص٣٤.

وقد ظهر العنوان في الغلاف الخارجي لرواية "اللص والكلاب، باللون الأبيض الفاتح، ذات الدلالة السلبية –هنا– ليعبر عن أنَّ الزمن الحالي هو زمن: اللصوص، والمجرمين، وأعوانهم من الكلاب؛ فهذا اللون الأبيض نقد للزمن والعصر الحاليين اللذين لا يصلح فيهما إلا الفاسدون من اللصوص، هنا نقد لاذع للقيم والمبادئ التي سادت المجتمع، وضربة قاسية للواقع السيء الذي ساد فيه الفساد والفاسدون؛ حتى صاروا واضحين وضوح اللون الأبيض. أما الصفحة الداخلية للغلاف فيظهر العنوان –مرة أخرى– في صورة لونية جديدة ومغايرة، وفيما يلي صورة العنوان في الغلاف الداخلي للرواية:

القراءة المتأنية للعنوان في الغلاف الداخلي يشير إلى أن الكاتب يعلن رفضه لهذه الفئة الفاسدة المفسدة من اللصوص والمجرمين، من خلال بروز العنوان "اللص والكلاب" باللون الأسود القاتم السميك في وسط فضاء أبيض، يغطي الصفحة كلها؛ لإظهار اعتراضه على هؤلاء اللصوص/اللون الأسود ونقدهم، وكشف أثرهم السيء في تلويث الواقع/اللون الأبيض النقي؛ مما أدي إلى فضحهم، ورفضهم، وتصويرهم في صورة سوداء مظلمة قبيحة وسط بياض شامل.

إنَّ العنوان في الغلاف الداخلي ظهر –هنا– باللون الأسود/ صورة سلبية، وسط فضاء أبيض/صورة إيجابية؛ تأكيدًا لرفض هؤلاء اللصوص المجرمين وأعوانهم من الكلاب.

والبياض الذي يملأ الصفحة يبين أن الأبيض/لون: الصفاء، والخير– الأكثر انتشارًا، والسائد داخل المجتمع، في مقابل اللصوص والكلاب، الذين هم الفئة الأقل، والمنبوذة من الجميع.

إنَّ اتساع مساحة الأبيض، في مقابل انحسار مساحة الأسود يؤكد أنَّ الأبيض/رمز النقاء والطهارة سوف ينتصر، ويتغلب على هذه الفئة القليلة المحدودة المرفوضة بأفعالها/ اللون الأسود.

ومن الواضح أنَّ انحسار العنوان "اللصوص والكلاب" في مساحة ضئيلة باللون الأسود القاتم، في وسط بياض واسع؛ جعل هذه الفئة واضحة بارزة بأفعالها المشينة، وأفعالها السيئة السوداء، وكشف أنها مرفوضة ومحاصرة من جميع أفراد المجتمع، المرموز لهم باللون الأبيض؛ فهذه الفئة الضالة بأفعالها المشبوهة لا يناسبها إلا الظلام/ اللون الأسود.

وبهذا تتضح براعة الكاتب في استثمار اللونين: الأبيض والأسود في العنوان، سواء العنوان في الغلاف الخارجي أم في الغلاف الداخلي، واتضحت مهارة المبدع في استغلال البياض والسواد؛ لتوليد معانٍ رمزية، ودلالات متعددة، جذبت المتلقي، وربطته بالنص الروائي.

ج- جماليات اللون في المطلع السردي:

المطلع اللوني هو المطلع القائم على الألوان، ذات الأبعاد الدلالية المتعددة، وقد شكَّل هذا المطلع بنية أساسية في رواية "اللص والكلاب"، يقول الكاتب:

"مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية، ولكن في الجو غبار خانق، وحرٌّ لا يطاق. وفي انتظاره وجد: بدلته الزقاء، وحذاءه المطاط ... ها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويًا على الأسرار اليائسة. هذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهذه السيارات المجنونة، والعابرون، والجالسون، والبيوت، والدكاكين، ولا شفة تفتر عن ابتسامة..."[1].

يقدِّم المقطع السابق منطلقًا لونيًا مفعمًا بألوان حافلة: بالحزن، والأسى، والوحدة، وقد تنوَّع الإيقاع اللوني بين: ألوان مذكورة محددة بألفاظ، وألوان أخرى جاءت في ألفاظ إيحائية الدلالة، كالتالي:

أما النوع الأول من الألوان -المصرح بها مباشرة- فهو اللون الأزرق، في قوله: "بدلته الزرقاء"، والأزرق -هنا- ذو دلالة سلبية؛ فالبطل/ السجين عندما خرج من محبسه لم يجد في انتظاره سوى بدلة زرقاء، ذلك اللون الذي يحمل -داخل السياق- دلالات: الحزن، والكآبة، والضياع؛ فالبطل خارج من السجن، ومستقبله غامض، وأمله في حياة سعيدة ضعيف؛ ومن ثمَّ لاءم اللون الأزرق حالة الضياع التي يستشعرها البطل أثناء خروجه من السجن.

والنوع الثاني من الألوان ظهر بصورة غير مباشرة -غير مصرح بها- وإنما يستنبطها المتلقي من خلال دلالة الألفاظ: "غبار خانق، حر لا يطاق، باب السجن الأصم، الطرقات، الشمس، السيارات المجنونة، العابرون، الجالسون، البيوت، الدكاكين، شفة، ..."، فهذه الألفاظ تحيل إلى ألوانٍ ضمنية، ذات

١- نجيب محفوظ: "اللص والكلاب"، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة، د ط، د ت، ص٧، ٨.

دلالات مفتوحة على عالم الألوان: (الأسود، الأحمر، الأصفر، ...)، وقد ظهر إبداع الكاتب في ترك تحديد الألوان على ذكاء القارئ وفطنته؛ ففي ألفاظ: (سيارات، العابرون، البيوت، الدكاكين، ...)، كل قارئ يتوقع اللون الذي يتناسب مع: فكره، وثقافته، ووعيه بمضمون النص؛ وهذا زاد من ارتباط المتلقي بالنص، وجذبه نحو متابعة القراءة.

ثانيًا- دلالة الألوان في بنية النص السردي، ويشمل:

أ - دلالة اللون المباشر:

ترتبط دلالة اللون المباشر بذكر اللون بألفاظه المباشرة الصريحة، مثل: أسود، أبيض، بني، أخضر، ...، مثال الوصف المباشر بالألوان قوله:

"ظهرت البنت بعينين داهشتين بين يدي الرجل، ظهرت بعد طول انتظار، طال ألف سنة. وتبدت في فستان أبيض أنيق، وشبشب، كشف عن أصابع قدميها مخضوبتين. وتطلعت بوجه أسمر، وشعر أسود مسبسب فوق الجبين؛ فالتهمتها روحه"[1].

في المقطع السردي السابق جاء الإيقاع اللوني صريحًا مباشرًا: (الأبيض، أسمر)، معبرًا عن الموقف؛ فقد ربط اللون بطبيعة الشخصية والموقف الحالي؛ فالطفلة الصغيرة تتسم بالبراءة والطهر؛ ومن ثَمَّ جاء اللون الأبيض ذا دلالة إيجابية، تشير إلى الصفاء والنقاء. لكن عندما نظرت الطفلة نحو الحضور والوجوه الغريبة، التي لا تعرفها؛ فزعت، وعندما حاول أحد الحضور دفعها - بقوة- للتعرف علي أبيها الذي تجهله، ولم تره منذ صغرها؛ زادت: فزعًا، ورعبًا[2]؛ حيث تقابل: مجهولًا، وماضيًا، لا تعلم عنه شيئًا؛ ومن هنا جاء اللون الأسمر ذا دلالات سلبية متنوعة، رامزًا للخوف من المجهول، والظلام الذي يحيط بفكرة الطفلة، وحالة الكآبة التي انتابتها؛ وهذا جعل اللون الأسمر مناسبًا

١- الرواية: ص١٦.

٢- الرواية: ١٧، ١٨.

لحال الطفلة، وهي مقبلة على مستقبل، تسوده: الضبابية، والظلام؛ وبهذا نجح الكاتب في اختيار الألوان المعبرة عن الموقف والسياق الفني داخل النص.

ومثال ذلك –أيضًا– الفقرة التالية:

"يا لها من فيلا خالية من ثلاث جهات، والجهة الرابعة حديقة مترامية، وأشباح هذه الأشجار تتناجى حول جسد الفيلا الأبيض، منظر قديم طالما شهد بالثراء، وذكريات التاريخ، ولكن كيف؟ ما الوسيلة؟، وفي هذه المدة القصيرة؟ حتى اللصوص لا يحلمون بذلك..."[1].

في الفقرة السابقة البطل/"سعيد مهران" منبهر بالفيلا التي يملكها عدوه "رؤوف علوان"، ومندهش من الثراء السريع والضخم الذي حققه، ويتساءل: كيف حصل على هذه الفيلا في وقت قصير؛ ومن هنا جاء اللون الأبيض للفيلا؛ رامزًا إلى حالة الغموض، والألغاز التي تحيط صاحبها، الذي حقق ثراءً فاحشًا وسريعًا.

ومثال الوصف المباشر بالألوان قوله:

"ونهض عند سماعه الأذان هانئًا بالخلاص من رقاد أليم؛ فتطلع من النافذة إلى: زرقة الفجر، وابتسامة المشرق، وفرك يديه حبورًا بالسعادة الوشيكة التي لم يعد يذكر عنها شيئًا؛ لذا فهو يحب الفجر: للنغمة، والزرقة، والابتسامة، والسعادة المنسية..."[2].

تعبر الفقرة عن حال البطل بعد أن قتل صاحبه الذي غدر به، ووشي به عند البوليس، وأدخله السجن، وتزوج امرأته، واستولى على بيته، وأبعد عنه ابنته الوحيدة؛ حينئذٍ شعر بالراحة؛ لأنه تخلص من هذا الخائن، وأحس بالطمأنينة والهدوء؛ فنظر إلى النافذة يشاهد زرقة الفجر.

١– الرواية: ٣٦.

٢– الرواية: ص٨١.

ومن هنا جاء اللون الأزرق معبرًا عن حالة: الهدوء، والاسترخاء، والطمأنينة التي استشعرها مما فعله. فاللون الأزرق –هنا– يحيل إلى الانفعالات الهادئة والمستقرة للبطل بعد قضائه على هذا الغادر، ولقد أجاد الكاتب توظيف اللون الأزرق في هذا الموقف؛ لأنه لونٌ عزّز حالة الاسترخاء والجو النفسي للموقف.

ومن نماذج الوصف باللون الصريح المقطع التالي:

"فتح عينيه؛ فوجد الدنيا حمراء، ولا شيء فيها، ولا معنى لها..."[1].

في الفقرة السابقة وظَّف الكاتب اللون الأحمر توظيفًا فنيًا؛ يعبر عن وعي بدلالة هذا اللون على: الصراع، والدم، والقتل، وهذا يشير إلى يقظة المبدع في الاستثمار الفني لدلالة هذا اللون داخل السياق؛ حيث إنَّ البطل قرر الانتقام من كل الذين خانوه، وغدروا به: فقتل "عليش" الخائن، ووضع خطةً للانتقام من زوجته الغادرة، وفكَّر في طريقة للقضاء على "رؤوف علوان"؛ ولذا فقد جاء اللون الأحمر معبرًا عن الموقف، ويحيل لحالة الصراع، والرغبة في الانتقام التي انتابت البطل.

ب – دلالة اللون غير المباشر:

ينطلق اللون غير المباشر من خلال حضور الألوان في صورة إيحائية، غير مباشرة؛ تعتمد على فطنة القارئ في استنباط اللون من خلال السياق. وهذا النوع له حضور واسع داخل النص السردي، من خلال وجود كثرة من الألفاظ والمفردات، ذات دلالات لونية مختلفة. مثال ذلك للمقطع التالي:

"... تلك المرأة النابتة في طينة نتنة، اسمها الخيانة. ومن خلال هذا الكدر المنتشر لا يبسم إلا وجهك يا سناء... عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكي العابسة، طريق الملاهي البائدة، الصاعد إلى غير رفعة، أشهد أني أكرهك.

---

١ – الرواية: ص٨٣.

الخمارات أغلقت أبوابها، ولم يبق إلا الحواري التي تحاك فيها المؤامرات، والقدم، تعبر من آن لآن، وضجيج عجلات الترام يكركر كالسبِّ، ونداءات شتى تختلط كأنها تنبعث من نفايات الخضر. ونوافذ البيوت المغرية حتى وهي خالية، والجدران المتجهمة المقشفة، وهذه العطفة الغريبة، عطفة الصيرفي، الذكرى المظلمة..."[1].

في هذه الفقرة يتجسد حضور قوي للألوان من خلال احتشاد عديد من المفردات ذات الدلالات اللونية الضمنية: (المرأة، طينة، الكدر، وجهك، الملاهي، البواكي، طريق، الخمارات، أبواب، القدم، نفايات، الخضر، نوافذ، البيوت، جدران، المقشفة، العطفة، المظلمة...)، في هذه المفردات تشكيلات لونية، تمثلت في الانفتاح اللوني على العديد من الألوان المختلفة والمتنوعة، التي لم يصرح بها الكاتب، ولم يحددها، وإنما ترك استنباطها على ذكاء المتلقي، وتلقيه للألوان؛ وفي هذا احترام لعقليته؛ حيث يشعر أنَّ الكاتب ليس وصيًا عليه، وإنما يترك له حرية تخيل الأشياء باللون الذي يناسب خياله.

ومثال تجسيد اللون بشكل غير مباشر النموذج التالي:

"... كطفل ملفى تحت نار الشمس، وقلبك المحترق يحنُّ إلى الظلِّ، ولكن يمعن في السير تحت قذائف الشمس..."[2].

في الفقرة السابقة أَكْثَرَ الكاتب من توظيف اللون بطريقة إيحائية، من خلال مفردات: (نار، الشمس، المحترق،...)، التي تحيل –بطريقة غير مباشرة– إلى اللون الأحمر، الذي يشير إلى حالات: الصراع، والدم، والعنف، الذي يعيشها البطل، الذي يرغب في الانتقام من الجميع؛ حيث تحول هذا البطل إلى قنبلة؛ تنفجر في وجه في كل من يقابله؛ فقتل صديقه الغادر، وزوجته الخائنة، وخطَّط لقتل بقية خصومه، بل إنه في طريق الانتقام يقتل –خطأً– أحد

١– الرواية: ص٩.

٢– الرواية: ص٨٤.

السكان[١]. واللون الأحمر من الألوان الساخنة المستمدة من الشمس ووهجها، ومن أكثر خصائصه ارتباطه: بالدم، والعنف؛ فهو لون مخيف نفسيًا؛ ولذا فقد جاء ملائمًا للسياق، ومعبرًا عن الموقف.

والمقطع السردي التالي يوظف اللون –بصورة غير مباشرة– يقول:

"اذهب إلى الجبل حتى يهبط الظلام. لا تغادره حتى يهبط الظلام. تحاش الضوء، ولُذْ بالظلام. تعب بلا فائدة..."[٢].

في الفقرة يستمر الكاتب في استرسال إعجابه اللوني بصيغة غير مباشرة؛ حيث يطرح لونًا قاتمًا/اللون الأسود، تمثَّل في الظلام الذي شاع في الفقرة، من خلال مفردات متعددة ومتكررة، حتى ساد الفقرة سواد ضمني، وظلام إيحائي. هذا الظلام تلاءم مع العالم السوداوي الذي يحياه البطل داخل أجزاء النص التي تفصح عن الدلالة اللونية بصورة واضحة.

وبهذا يتضح أن المبدع أتقن استخدام الألوان بدلالاتها المختلفة، سواء أكانت الألوان مباشرة، من خلال ذكر الألفاظ الصريحة المباشرة، أم غير مباشرة، التي تأتي من خلال حشد عدد من المفردات التي تعبر عن ألوان محددة، بشكل غير مباشر.

وقد ظهر أنَّ أكثر الألوان بروزًا في الرواية هو الأسود، الذي جاء – غالبًا– ذا دلالات سلبية مختلفة.

وقراءة الرواية تبين أن اللون غير المباشر أكثر الأنواع اللونية حضورًا داخل النص، من خلال حشد كمٍ هائل من المفردات، ذات الدلالات اللونية وقد جاءت الألوان –بنوعيها: المباشر، وغير المباشر– مناسبة

١– الرواية: ٨٦.

٢– الرواية: ص٨٩.

للأحداث، والموقف السردي؛ فاللون له "القدرة على تحقيق التناغم والانسجام في أي مادة يدخل في تكوينها"[١]

ثالثًا- أبعاد اللون:

وتشمل الأبعاد: النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية.

أ- البعد النفسي للألوان:

الألوان لها قوة تأثيرية في النفس البشرية؛ حيث تؤثر -بصورة مباشرة- في جهازنا العصبي؛ فتثير مشاعر متنوعة، من: الإثارة، أو الهدوء، والفرح أو الحزن، كذلك لها قدرة عالية على توليد طاقة إيجابية؛ فيشعر الإنسان: بالاسترخاء والهدوء، أو تحيط الفرد بطاقة سلبية؛ فتنتابه حالة من: التوتر والقلق؛ فالنفس البشرية "حين تستقبل الألوان قد يحدث فرحًا، وحين لا تستقبلها تنقلب إلى حزن وأسى"[٢]؛ حيث يعدُّ اللون انعكاسًا لحالة الإنسان المزاجية والسلوكية؛ فتوجد علاقة ترابط واضحة وقوية بين: اللون الذي يختاره الإنسان، وميوله، وصفاته، وشخصيته، وثقافته.

ويؤكد علماء النفس أنه من خلال اللون ودرجته، يمكن معرفة الحالة النفسية للشخص، وما يترتب عليها، من: هدوء، أو اضطراب، ونشاط، أو خمول، مثال ذلك الفقرة التالية من الرواية:

"... وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء، وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد في انتظاره أحدًا، ها هي الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصم..."[٣].

اللون الأزرق في الفقرة له دلالات نفسية سلبية، تحيل إلى معان: الضيق/ والحصار، والقيد، وضعف الحركة، والحسرة، والألم، فهنا صار اللون

١- علي إسماعيل السامرائي: اللون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي، دار غيداء عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢١.

٢- نذير حمدان: الضوء واللّون في القرآن الكريم، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، مجلد١، ص٤٠.

٣- الرواية: ص٧.

الأزرق علامة دالة على وضع البطل/السجين، وما يحس به من: حصار، وتضييق، وخضوع، وإذلال.

ومثال البعد النفسي للون الذي يعكس الحالة النفسية لشخصية البطل؛ المقطع التالي الذي يتذكر فيه ابنته، يقول:

"... سناء إذا خطرت في النفس؛ انجاب عنها: الحر، والغبار، والبغضاء، والكدر، وسطع الحنان فيها كالنقاء غب المطر، ماذا تعرف عن أبيها؟ ... لا شيء، كالطريق، والمارة، والجو المنصهر. طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله، وتدرجت في النمو، وهي صورة غامضة، فهل يسمح الحظ بمكان طيب؛ يصلح لتبادل الحب، ينعم في ظله بالسرور المظفر. والخيانة ذكرى كريهة بائدة ..."[1].

في الفقرة السابقة كشف اللون عن حالة الصراع الداخلي، والتمزق النفسي داخل البطل، وأظهر اللون حالتين متناقضتين في أعماقه:

– الحالة الأولى، أنه عندما يتذكر ابنته؛ يشعر بسرور وسعادة، واتضح ذلك في المفردات ذات الدلالات اللونية غير المباشرة: (سناء، المطر، سطع، النقاء، الحنان، غب المطر، ...).

– والحالة الأخرى أنه عندما يتذكر أن ابنته تنكره، ولا تعرفه؛ تكتنفه الهموم، والضيق، والقلق، من خلال المفردات لونية ضمنية تمثلت في: (لا شيء، الطريق، المارة، الجو المنصهر، صورة غامضة، الخيانة، كريهة، ...)، هذه المفردات تجسد حالة: المعاناة، والفقدان، والأزمة، والألم النفسي، والمرارة التي يحياها البطل في ظل بعده عن ابنته، وجهلها له، وغدر المحيطين به.

وفي المقطع التالي يكشف اللون عن حالة الفرح والسعادة الي شعر بها البطل؛ عندما عاد بذكرياته إلى الماضي البعيد في أيام العيد؛ يقول:

١– الرواية: ص٨.

"خرجت تحمل دقيق العيد ... آثار العيد والحب ... تراءت الجوامع الشامخة ...السماء الصافية ... وتجلت الخضرة ... الأشعة الحامية..."[1] .

تحفل الفقرة السابقة بألوان –صريحة مباشرة، وأخرى ضمنية غير مباشرة– تبعث حالة من السرور في النفس، وتعبر عن حالة السعادة التي تغمر الشخصيات أيام العيد؛ فالدقيق بلونه الأبيض الناصع؛ جاء في دلالة إيجابية؛ ليعكس حالة النقاء والصفاء والسعادة التي كان يعيش فيها الإنسان في الزمن الجميل القديم، حيث الجميع يعيشون في حب، وسلام، بعيدًا عن الكراهية والبغضاء. كما يثير اللون الأبيض حالة من الهدوء والراحة؛ تعبيرًا عن الزمن الماضي الجميل.

وفي ظل هذه الأجواء القديمة، ذات الذكريات الجميلة المحببة للنفس؛ تظهر السماء الصافية، بلونها الأزرق، الباعث على الهدوء والراحة النفسية. وتستمر تداعيات الألوان الباعثة على البهجة، في (خضرة البستان)؛ حيث اللون الأخضر/رمز: الجمال، والخير، والنماء، والراحة

هذه الخضرة الجذابة؛ تحيطها أشعة الشمس الذهبية، التي تزين البستان، وتزخرفه بأشعتها المتفرقة، وتزيده بهاء وروعة.

لقد استطاع الكاتب في هذا المقطع السردي رسم صورة لونية مثيرة جذابة، من خلال توزيع لوني مدهش؛ عكس الحالة النفسية للشخصيات، وما تشعر به من سرور، فرحة.

والبطل/"سعيد مهران" –بعد خروجه من السجن– يشعر بحالة ضيق ويأس، وظل يبحث عن منقذٍ له؛ يخرجه من مأزقه، واستقر –بعد عناء– على صديقه القديم، ذي المكانة الرفيعة "رؤوف علوان"؛ حينئذً يشعر بسعادة غامرة، تعبر الفقرة التالية عن ذلك:

١– الرواية ص١١٥.

"...افترش العشب الندي عند كورنيش النيل، بشارع النيل، ومضى ينتظر. انتظر طويلًا على كثب من شجرة ... النجوم تومض في ظلمة رهيبة، وجرت نسمة رقيقة لطيفة مقطرة من أنفاس الليل..."[١]

في الفقرة يسيطر اللون الأخضر، في: (العشب، شجرة)، هذا اللون الملتصق: بالربيع، والخصب، والنماء، كما أنه يرمز للحياة الجديدة التي يحلم بها البطل، ويظن أن صديق عمره سيعينه على هذه الحياة المأمولة؛ ولذا جاء اللون الأخضر مناسبًا للحالة النفسية للبطل. ثمَّ ظهر اللون الأبيض في: (الهلال، النجوم)؛ تعبيرًا عن الأمل المنتظر الذي يحياه البطل، عند لقاء صديقه ومنقذه؛ فالأبيض يمثل: النور، والحياة، والجمال، والأمل المنتظر.

وبهذا يتضح أنَّ اللون يشكِّل جانبًا كبيرًا من سلوكيات الشخصيات، ويكشف الكثير من الجوانب النفسية لها، كذلك يعكس اللون الحالة المزاجية لكل شخصية، ويُظهر العديد من: صفاتها، وانفعالاتها، وميولها، وثقافتها.

ب- البعد الاجتماعي والثقافي للألوان:

اكتسبت الألوان وألفاظها العديد من الدلالات: الاجتماعية، والثقافية؛ فالألوان تشكِّل منظومة اجتماعية كبيرة، ترتبط بمفاهيم محددة، تختلف من مجتمع لآخر، تبعًا لاختلاف: الثقافات، والمعارف، والاصطلاحات المجتمعية داخل المجتمعات المختلفة؛ حيث إنَّ الدلالة الرمزية لكل لون ترتبط بالسياقات الاجتماعية التي تتعامل مع الألوان برمزية محددة، متفق عليها؛ فقد "استخدم اللون منذ أقدم العصور شعارًا أو رمزًا لشيء معين، وما يزال يستخدم بين إنسان العصر الحديث؛ حتى صار تقليدًا أو شبه تقليد في استخدام اللون المناسب في الموقف المناسب"[٢]

١- الرواية: ص٣٦.

٢- أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب للنشر والتوزي، القاهرة، ط٢، ٢١٩٩٧م، ص١٦٥.

إنَّ الألوان ترتبط بالمنظومة الاجتماعية الاحتفالية، التي تتمثل في الطقوس المختلفة داخل المجتمعات، مثل: العادات، والتقاليد، وطقوس الزواج، والموت، والختان، وغير ذلك من المناسبات المختلفة.

وفي الرواية وظَّف الكاتب الألوان لتشير إلى أبعاد اجتماعية مختلفة؛ فقد استخدم ألوان الملابس؛ لتعبر عن موقف النزلاء داخل السجون؛ فيقول: "...وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء..."[1].

من خلال قراءة المقطع السابق نعرف أنَّ القانون المصري يحدد صورة محددة لملابس المساجين، التي تعبر عن موقفهم القانوني، أثناء عملية المقاضاة أمام المحاكم، وبعد الحكم. وتتنوع الملابس لكل شخص كلما صدر ضده حكم، أو ألغي آخر؛ فاللون الأبيض للحبس الاحتياطي؛ فيرتديه المتهم بعد القبض عليه، وواضح أنَّ هذا اللون يشير إلى النقاء والطهر؛ حيث إن المحبوس مازال على ذمة التحقيق، ولم يصدر ضده اتهام، ولم يدان بتهمة، ولم يدنس ثوبه، ولذا جاء الأبيض تعبيرًا عن موقفه.

واللون الأزرق للسجن، واللون الأحمر للمحكوم عليهم بالإعدام، وهو من الألوان الساخنة، والمعبرة عن الخطر، واللافتة للانتباه؛ لتشير إلى خطورة المتهم.

في الفقرة السابقة إشارة إلى البذلة الزرقاء؛ لتحيل إلى الموقف القانوني للبطل، فهو سجين، واللون الأزرق هو الأشهر؛ لأنه الزي الرسمي والتقليدي داخل السجن.

والأبعاد الاجتماعية للون ظهرت في حبِّ العربيِّ عامةً والمرأة خاصة للخضاب، وهو ما يخضب به من حناء أو أصباغ للزينة؛ فالحناء رمز اجتماعي للاحتفالات والمسرات في العديد من المجتمعات، وارتبطت بدلالات

١- الرواية: ص٧.

متعددة، تشمل معاني: الجمال، والفرحة، والصحة، والزينة، والقداسة الدينية. وقد عبَّر الكاتب عن هذا؛ فيقول:

"ظهرت البنت بعينين داهشتين بين يدي الرجل... وتبدت في: فستان أبيض أنيق، وشبشب أبيض، كشف عن أصابع قدميها المخضوبتين..."[١].

وفي المقطع السردي التالي وظَّف الكاتب اللون الأزرق صفة ورمزًا يشير إلى طبقة الأرستقراطيين، وأصحاب الدماء الزرقاء، يقول:

"... وثمَّة رائحة سحرية، لا تصدر إلا عن دم أزرق، رغم أنفه المائل إلى الفطس، وفكيه البارزين..."[٢].

في المقطع السردي السابق يحيل اللون الأزرق إلى الطبقة الأرستقراطية والنبلاء، من ذوي الأصول الأوروبية، في إشارة إلى صفاء العرق، وعدم الاختلاط؛ حيث بشرتهم لم تصبغها أشعة الشمس؛ فقد كانت الطبقة العليا من الأرستقراطيين تتميز بشرتهم بلون الأوردة الزرقاء.

ومن الواضح أنَّ زرقة الدماء وظَّفها المبدع صفة للنبلاء، في دلالة اجتماعية؛ تبعث على: التباهي، والإعجاب، والتميز عن الآخرين، لدي هؤلاء الأرستقراطيين.

كما استثمر الكاتب اللون الأبيض –بعدًا اجتماعيًا– في إبراز جمال المرأة، وكشف إعجاب العربيّ ببياض بشرة المحبوبة، وصفاء وجهها، الذي يشبه القمر، يقول: "... رأيت الهلال ووجه الحبيب، ...".

لقد ربط وجه الحبيب بالهلال؛ ليعكس ما يتمتع به من بشرة بيضاء صافية؛ تكشف الإعجاب بهذا اللون، وصاحبته.

١- الرواية: ص١٦.

٢- الرواية: ص٣٨.

ج- البعد الديني للألوان:

حرص الإنسان قديمًا وحديثًا على استخدام الألوان في طقوسه الدينية ومختلف أشكال عباداته، وشملت: ملابسه، ومكان العبادة، وصار لكل لون: رمز، وإشارة، ومرتبة محددة، وصارت هناك ألوان معينة تشير إلى الهوية الدينية، والمكانة الاجتماعية والعلمية لرجل الدين.

والفضاء الخطابي -في الرواية- استثمر الألوان في الإيحاء بدلالات دينية، مثال ذلك قوله:

"أتمَّ الشيخ تمتمته، ثمَّ رفع رأسه عن وجه نحيل فائض الحيوية، بين الإشراق، تحفُّ به لحية بيضاء كالهالة. وعلى الرأس طاقية بيضاء منغرزة في سوالف كثَّة فضية...."[1]

في المقطع السابق تأكيد للمرجعية الدينية والمجتمعية التي ترسم صورة -في الوعي- لرجل الدين، يطغي فيها اللون الأبيض، الذي يحيل إلى دلالات دينية، ذات معان إيجابية؛ فهو رمز: السلام، والخير، والنقاء، والطهر، ومن ثمَّ فقد لاقى البياض انسجامًا مع طبيعة رجل الدين المعتدل، وشخصيته، وثقافته، وأفعاله. كما أنَّ المرجعية الدينية تربط اللون الأبيض بالملائكة؛ التي هي مخلوقات نورانية بيضاء.

ويشيع اللون الأبيض -في الفقرة السابقة- بصورة واضحة، وبدرجات لونية متفاوتة في المفردات: (الإشراق، لحية بيضاء، الهالة، طاقية بيضاء، سوالف فضية، ...) في إشارة لارتباط هذا اللون برجل الدين الصوفي الشيخ "علي جنيدي"؛ ليعبر عما يتصف به من: النقاء، والصفاء، والجاذبية، كما أنَّ الأبيض -هنا- يحيل إلى: الوقار، والطيبة، ورزانة العقل، التي يتمتع بها الشيخ الصوفي.

١- الرواية: ص٢٢.

ومن نماذج استثمار اللون في أجواء دينية، وطقوس صوفية؛ للتعبير عن معانٍ دينيةٍ؛ الفقرة التالية:

"نظر إلى المكان المفتوح، المفتوح دائمًا كما عهده من أقصى الزمن، وهو يقترب منه ضاربًا في طريق الجيل... وما أكثر الكسالى المستلقين في ظل الجبل، بعيدًا عن الشمس المائلة، ووقف عند عتبة الباب المفتوح... حوش كبير غير مسقوف، في ركنه الأيسر نخلة عالية مقوسة الهامة، وإلى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة مفتوح، لا باب مغلق في هذا المسكن العجيب... المهتزون بالأناشيد يملؤون الحوش، والله في أعماق الصدور يتردد... فرحة كالجنة بعثها الحلم والإيمان، وفرحة بالغناء والشاي الأخضر... الشيخ متربع على سجادة الصلاة غارقًا في التمتمة ... الحصر جددت شكرًا للمريدين، وما زال الفراش البسيط لصيق الجدار الغربي، وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوة عند قدميه ...رائحة البخور مستقرة ..."[1]

في الفقرة السابقة حملت الألوان –الصريحة والضمنية– لمحات من الأبعاد الدينية، من خلال حشد من المفردات اللونية ذات الإيحاءات الدينية: (نخل عال، الجنة، الأخضر، سجادة، الشمس المائلة، كوة، البخور، حوش، دهليز، شعاع، ...).

ومن الواضح غلبة اللون الأخضر على الفقرة: (نخل، الجنة، الأخضر، سجادة...)؛ لما لهذا اللون قداسة وهالة دينية محببة لدي جميع المسلمين؛ فهو لون: القداسة، والثقافة الإسلامية، ولون التصوف، والزهد، وهو اللون الغالب في المحافل الدينية ورمز: الجنة، والخضرة، والنماء، والخيرات، والجمال، والربيع، والحياة، والتجدد، والخصوبة، والطمأنينة

ومما سبق يتضح براعة الكاتب في استدعاء الألوان ذات الأبعاد الدينية، خاصة: الأبيض، والأخضر؛ لارتباطهما بالهوية الدينية والثقافة الإسلامية، وقد وظفهما الكاتب ببراعة داخل النص، بما يتناسب مع الموقف الفني والسياق الأدبي.

١- الرواية: ص٢٢.

الخاتمة

اللون عنصر أساس في الحياة، وجزء رئيس من العالم المحيط؛ حيث يتجسد في كل الأشياء حولنا؛ فيمنحها هويتها وخصائصها؛ إنه يشكِّل قيمة تكسو الحياة: جمالية، وبهجة، وجاذبية؛ تثير الخيال، وتوقظ الأحاسيس.

لقد اتضح –من خلال قراءة النص الروائي– أنَّ اللون شكَّل بنية بارزة في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ؛ فقد اعتنت الرواية بتوظيف الألوان داخل بنيتها؛ لإضفاء: دلالات متعددة، ومعاني رمزية متنوعة؛ زادت البنية السردية: قوةً، وعمقًا، وجمالًا، وفنيةً. ولقد استثمر المبدع الطاقات الهائلة التي تحملها الألوان في النص في صور وأشكال مختلفة، بدءًا من: الغلاف، والعنوان، والمطلع اللوني، وأعماق النص.

–**الغلاف الخارجي للرواية** يكشف عناية باستثمار الألوان المتعددة، التي فتحت أمام المتلقي مستويات دلالية، وفنية، وجمالية. وقد عكس الغلاف مجموعة من الألوان التي تتباين بين: داكنة وأخرى فاتحة، ويأتي اللون الأسود القاتم ليحتل مساحة واسعة.

وقارئ النص يلحظ أنَّ اللون الأسود الذي ساد الغلاف يحيل –بصورة مباشرة– إلى الحياة السوداوية التي عاشها البطل "سعيد مهران من: الغدر، والخيانة، والفساد.

والمدقق في الغلاف الخارجي يرى أنَّ الصورة –بوصفها رسالة بصرية– لها دور كبير في بناء الغلاف، وتوليد جملة من الدلالات؛ ففي الجزء السفلي من الغلاف صورة امرأة في: ثوبٍ أحمر داكن، وشعرٍ أصفر، وشفاه حمراء، وحليٍّ أصفر؛ للتعبير عن حال هذه المرأة، وما تعيش فيه من: لهو، وعبث، ورغبات جنسية، وإغراء، وفي هذا إحالة إلى حياة بطلة الرواية (نور): بائعة الهوى، التي تقضي الليالي الحمراء مع من يدفع المال.

ولتأكيد دور الصورة في إثراء النص؛ أضاف المبدع صورة أخرى في الغلاف الداخلي للرواية، طغى فيها اللون الأسود، وقد شمل هذا اللون: الشجر،

والـزرع، والبيـوت، خلافًـا لطبيعتهـا المعروفـة؛ وفـي ذلـك رفـض للفاسـدين، واعتراض على أفعالهم السيئة داخل المجتمع؛ حيث يعلن الكاتب –صراحة من خـلال اسـوداد الشـجر– أنَّ هؤلاء اللصـوص والمجـرمين قـد دمـروا المجتمـع، وأشاعوا فيه الخراب، ودمروا الأخضر واليابس.

– **العنوان في رواية "اللص والكلاب"** ظهر باللون الأبيض الفاتح وسط فضاء أسود، في صورة رسالة لغوية، ذات مدلولات رمزية؛ حيث يشير الكاتب بهذا البياض إلى أنَّ فئة الفاسدين قد انتشرت داخل المجتمع، واحتلت مواقع رفيعة، وصارة بارزة وواضحة مثل بياض النهار.

لكن الكاتب لا يقف من هذه الفئة موقف المستسلم، بل يعلن رفضه لهؤلاء اللصـوص، مـن خـلال العنـوان –فـي الغـلاف الـداخلي– الـذي ظهـر بـاللون الأسود القـاتم السميك، وسط فضـاء أبيض واسـع، فـي إعـلان صـريح لـرفض اللصوص والمجرمين، وفضح موقفهم، وإظهار أثرهم السيء في تلويث الواقع/ اللون الأبيض؛ ومن هنا جاء العنوان باللون الأسود، ذات الدلالات السلبية.

والمدقق في قراءة الصفحة الداخلية للعنوان يتضح له أن مساحة الأبيض أوسع وأشـمل مـن مسـاحة الأسـود؛ لتأكيـد أن الأبيض/رمـز النقـاء والخيـر سينتصـر على الشر والفساد/ اللون الأسود.

–**لقد حرص المبد ع على استخدام اللون في المطلع السردي،** والاستفادة من الطاقة الهائلة للون في إنتاج معاني رمزية متنوعة، وقد تنوعت الصورة اللونية داخل المطلع، بين: ألوان صريحة، وأخرى إيحائية ضمنية، وسيطر اللونـان: الأسـود، والأزرق علـى المطلـع، مُتيحَـيْنِ ظـلالًا سـلبية؛ تحيـل إلـي: حالـة الضياع، والقهر، والضعف التي يحياها البطل، وهو خارج من السجن.

–**أتقن "نجيب محفوظ" توظيف الألوان –المباشرة، وغير المباشرة–** داخل الروايـة– لتوليد دلالات وجماليـات متعـددة. أمـا اللـون المباشـر؛ فجـاء بألفـاظ مباشرة محددة، وأكثر الألوان بروزًا في الرواية هو الأسود، الذي جاء –غالبًا– ذا دلالات سـلبية مختلفـة؛ فعبَّـر عـن: الموقـف الفنـي، وطبيعـة الشخصـيات،

وحالة: الضياع، والخوف، والاضطراب، والظلام، والقهر، التي يشعر بها شخصيات الرواية.

وأما اللون غير المباشر؛ فقد اتضح في حضور اللون بطريقة ضمنية، إيحائية، تحتاج من القارئ إمعان العقل لاستنباط اللون داخل السياق السردي؛ وهذا زاد من توثيق العلاقة بين القارئ والنص؛ حيث شعر الأول باحترام الكاتب لعقليته، وتقديره لذكائه في استنتاج اللون خلال القراءة.

ويعدُّ اللون غير المباشر أكثر الأنواع اللونية حضورًا داخل الرواية، من خلال حشد كمٍ هائل من المفردات، ذات الدلالات اللونية، والمعاني الرمزية المتعددة.

-**اعتنى الكاتب بإبراز أبعاد اللون**، وشملت الأبعاد: النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية.

وفي الرواية عكست الألوان الحالة: المزاجية، والسلوكية للشخصيات؛ فمن خلال اللون -داخل السياق- يمكن معرفة: طبيعة الشخصيات، وميولها، وثقافتها.

أما البعد الاجتماعي للألوان فيظهر في حرص المبدع على توظيفها لتوليد معانٍ؛ تحيل إلى المنظومة الاجتماعية: بطقوسها، وثقافاتها المتنوعة، وعاداتها، وتقاليدها.

والفضاء الخطابي -في الرواية- استثمر الألوان في الإيحاء بدلالات دينية متنوعة، وكان اللونان: الأبيض والأخضر -بدرجات متفاوتة- أكثر الإيقاعات اللونية بروزًا في النص؛ لما لهذين اللونين من: قداسة، وهالة دينية محببة لدي جميع المسلمين.

المصادر والمراجع

أولًا–المصادر:

- نجيب محفوظ: "اللص والكلاب"، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة، د ط، د ت.

ثانيًا–المراجع:

- ابتسام مرهون الصفار: جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
- بسام قطوش: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.
- بشرى البستاني: قراءات في الشعر العربي الحديث"، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
- جميل حمداوي: السميوطيقيا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عالم الفكر الكويت، مج25، عدد 3، يناير، مارس١٩٩٧م.
- حسن نجمي: شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.
- صالح ويس: الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٤م.
- صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الجزائري المعاصر فترة (١٩٨٨–٢٠٠٧)، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠م.
- صلاح عثمان: الواقعية اللونية، قراءة في ماهية اللون وسبل الوعي به، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

- ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، الشعر الأردني نموذجًا، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
- علي إسماعيل السامرائي: اللّون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، دار غيدا، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨.
- فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية العلوم ناشرون، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
- قاسم حسين صالح: الإبداع وتذوق الجمال، دار دجلة، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
- كلود عبيد: الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، ودلالاتها، مراجعة محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م.
- ليندة جنادي، هبة مفتاحي: سيميائية العنوان في روايات محمد مفلاح، قصص الهواجس وشعلة المايدة نموذجًا، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، ٢٠١٥م.
- نذير حمدان: الضوء واللّون في القرآن الكريم، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط١، مجلد١، ٢٠٠٢م.
- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م.